Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 02:2 (1966)

وجهة نظر الاسلام تجاه العلم

السيد مظهر الدين الصديقى

أنه يجدر بنا قبل ان نخوض فى البحث عن وجهة نظر الاسلام تجاه العلم ان نتكلم اولا عن العلم و تعريفه و عن كل ما له علاقة به ان الخبرة هى أساس كل علم بغض النظر عن كونه متعلقا بالفلسفة او العلوم.

— و ما لم يكن العلم مبنيا على اساس الخبرة فانه لا يليق به ان يدعى علما — البتة — اما الخبرة فهى مشاهدة الحقائق و الاحداث و يستنتج من ذلك ان العلم بالاحداث و الحقائق هو الاساس للعلم العالى — و لكن الحقائق و الاحداث التى هى نتيجة الخبرة لا يحق لها ان تدعى علما و يشمل هذا التصريح العلم المبوب ايضا فدليل التلفون مثلا يحتوى على بعض الحقائق المبوبه ولكن لو قدر شخص ان يحفظها عن ظهر قلب لا يسعنا ان نقبله كعالم فالعالم بمعناه الحقيقى يستلزم التحقيق فى معانى الحقائق و الاسباب المؤدية الى الاحداث و القوانين التى هى مسيطرة على علم الطبيعة و البيئة و المجتمع الانسانى و على هذا الاساس فان الفلسفة يجدر بها ان تتصدر العلوم كلها و تعلوها قدرا و شرفا فالفيلسوف يستخرج روح الحقائق و الخبرة و يجردها عن القشرة و كذلك العالم بالعلوم الطبيعية فانه لا يقتصر على تسجيل الحقائق الطبيعية التى يشاهدها و انما يحاول ان يرى مايختبئ وراء المظاهر المادية ثم يستنتج المبادئ و القانون الذى يحكم هذه المظاهر و مثله المؤرخ فانه لا يقتصر على تسجيل فهرس او كشف عن الحقائق التاريخية و انما يدرس القانون السارى فى التاريخ و يتبين من ذلك ان الرقى فى ميدان العلم لا يقتصر على زيادة فى العلم او تكاثر الآلات التى تساعد فى مشاهدة الحقائق و انما ينحصر ايضا على كسب الانسان صلاحيات لاستنتاج الحقائق العمومية من الخبرة و الاحداث التى سبق مشاهدتها.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

لقد كانت الزيادة فى انصراف الناس الى درس الشئون الدينية عاملا فى وقف الزيادة فى العلوم و تطورها قبل ظهور الاسلام و قد ساهمت الفلسفة البلوتينية الحديثة بقسط وافر فى زوال العلم لان بلوتيوس كان يعتقد ان النشاط و البشاشة الروحية هى الطريق الى معرفة الله فمن تعاليمه ان تقفل الفكر لكيلا تأخذ انطباعات عن المظاهر الخارجية و حذا حذوه اليسوعيون فركزوا فكرهم على علاقة الاقانيم الثلاثة الاب و الا بن و الروح القدس و استمرت هذه المباحث الدينية بدون الاشارة الى المشاهد من الحقائق او الى محاولة لفهم مظاهرو مناهج الحياة —

و الاسلام هو الذى حث الانسان على اكتساب العلوم بما فيها الفلسفة و هى طبعا تشمل العلم بالمشاهدات الحقيقية فاول آية من آى الذكر الحكيم تؤكد بصراحة ما للقراءة و الكتابة من أهمية .

اقرأ باسم ربّك الذى خلق — خلق الانسان من علق — اقرأ
و ربّك الاكرم — الذى علم بالقلم علّم الانسان مالم يعلم —

و النبى صلى الله عليه وسلم عمل بالتعاليم الربانية فى هذه الآيات الكريمة فطالب أسرى بدر ان يقوموا بتعليم مسلمى المدينة القراءة و الكتابة و وعد الاسرى بالافراج عنهم بدون ان يطالبهم باداء فدية و فى عهد امير المؤمنين عمر الفاروق رضى الله تعالى عنه و هو ثانى الخلفاء الراشدين المهديين أسست مدارس منظمة فى مساجد لتعليم اطفال المسلمين القراءة و الكتابة و القرآن الكريم - هل هناك مايدل على اهتمام النبى الكريم بالعلم اكثر مما هو . مأثور عنه صلى الله عليه وسلم و هو دعاؤه = رب زدنى علما (٢٠ : ١١٤)

ثم ان القرآن يصرح ان العلم من الكفاءات اللازمة للحاكم و قال لهم نبيّهم انّ الله قد بعث لكم طالوت ملكا — قالوا انّى يكون لهم الملك علينا و نحن أحقّ بالملك منه و لم يوت سعة من المال — قال انّ الله اصطفاه عليكم و زاده بسطة فى العلم و الجسم — ثم يعود القرآن فيؤكد أن أهل العلم و ليس سواهم يخافون الله ألم تر أن الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها

و من الجبال جدد بيض و حمر مختلف الوانها و غرابيب سود —
و من النّاس و الدوابّ و الانعام مختلف الوانه كذلك — انّما يخشى
الله من عباده العلماء —

و مما هو جدير بالذكر ان هذه الآية الكريمة تذكر عددا من المظاهر الطبيعية ثم تؤكد انما يخشى الله من عباده العلماء.

و طبيعى انه يواجهنا سؤال هنا: ما هى الصلة بين العلم و المظاهر الطبيعية التى تشكل العلوم و مخافة الله؟ و الجواب ان هذه الصلة واضحة و هى ان الذين يدركون عمل الطبيعة و يعلمون كنه التاريخ يعلمون اكثر من اى انسان آخر ان الله غالب على كل شئ و ان القانون الالهى السارى فى الكون صارم صرامة لا ينجو منها اى شئ فى العالم او اى انسان او اى امة من الامم و لا ينتصر فى الحرب الدائر للبقاء الا الذين طبقوا القانون الالهى فى حياتهم و الذين جعلوه اساسا للمجتمع و الدولة — ان الانسان العادى يتصرف فى حياته كانه لن يواجه اى حادث مهما كانت حالة المجتمع الذى يعيش فيه أما العلماء فيعلمون ان مصير الامم منوط بما تأتيه من اعمال حسنة او سيئة —

و القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد المنزل من السماء فى التاريخ الذى يحذر المومنين به عن التقليد الاعمى و التشبث بكل ما يصل اليهم باسم الله فقد طالب القرآن الكريم المؤمنين ان يدركوا محتويات الآيات و يفهموها فهما جيدا و ان لا يتصرفوا تصرف الاعمى فى مجال الدين —

و الذين اذا ذكّروا بآيات ربهّم لم يخرّوا عليها صمّا و عميانا

و يمكننا الحكم بوجهة نظر القرآن تجاه العلم اذا راعينا الحقيقة الراهنة و هى انه أول كتاب فى تاريخ العالم اكد على الانسان ان ينصرف بفكره الى مشاهدة المظاهر الطبيعية — ان القرآن يحتوى على قليل من علم الدين و لكنه بدوره يؤكد على الانسان على ان يرى الله خلال الطبيعة و يقول القرآن الكريم ان الانسان اذا انصرف الى الطبيعة فانه يرى فيها آيات الله — و من ميزات المؤمنين فى القرآن تطلعهم الى خلق السموات و الارض (٣ : ١٩٨) و يقول: ان فى خلق السموات و الارض و اختلاف اللّيل و النّهار

لايات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما و قعودا و على جنوبهم و يتفكّرون فى خلق السموات و الارض ربّنا ما خلقت هذا باطلا.

و يمكننا سرد عدد لا يحصى من آى الذكر الحكيم و كلها توجه الانسان الى مشاهدة الطبيعة و مظاهرها و ذلك فى عصر تعوّد الناس على اعتبار الدين كاعلى فرع من فروع العلم و كان أساسه على الفكر المكتسح بدون ان تصاحبها نظرة الى المظاهر الخارجية و قد احترم القرآن الكريم وكّرم الاحاسيس حيث جعلها على مستوى واحد من الفهم و الذكاء —

و لا تقف ما ليس لك به علم — انّ السمع و البصر و الفوأد كل اولئك كان عنه مسئولا.

و الحقيقة انها كانت قفزة رائعة نحو اكتساب العلوم عندما وضع العلم الحسى على مستوى رفيع و ذلك فى عصر تعوّد الناس على اعتبار النشاط و الطرب الصوفى أساسا رئيسيا للعلوم —

و النبى عليه الصلوة و السلام بنفسه ابان الدافع الذى فى العلم الحسى و ذكر ما لها من الاهمية فقد قال صلى الله عليه وسلم لا أناس طلبوا منه ان يأتيهم بالمعجزات :

لو رائيتم خلق الله فى امور الطبيعة لوجدتم انه ليس أقل من المعجزات —

وقبل ان ننهى المقال يجدر بنا الاشارة الى مساهمة القرآن بقسط وافر من التنويه بدرس التاريخ فقد ذكرت آيات كثيرة الكفاح الذى قام بها الانبياء و الرسل قديما ضد المساوئ التى كانت متفشية فى مجتمعهم و ان الامم التى رفضت ان تقبل الاصلاح و ان تقوّم ما فسد لقيت عقابا شديدا و هذه الآيات لتنزل الى الاعماق و تبحث فى روح الامم التى رفضت ان تسترشد بتعاليم الانبياء — و يقول القرآن الكريم يا ايها النبّى حرّض المومنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين و ان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بانّهم قوم لا يفقهون.

و يصف القرآن الكريم الكافرين بكونهم فاقدين او ناقصين فى الذكاء و الفهم ولكن فيم كان هذا النقصان؟ لقد كانوا أندادا للمسلين فيما يخص الحكمة فى حياتهم اليومية ان لم يكونوا فوق مستوى المسلمين لانهم كانوا من التجار و كانوا ايضا سياسيين محنكين — و الذى كان ينقصهم هو عدم استطاعتهم استنتاج الحقائق العمومية من احداث و حقائق معينة و استطاع المسلمون ان يحصلوا على هذه الكفاءة من طريق تعاليم نبيهم و القرآن الكريم —

و قد اخبر القرآن الكريم و تنبأ بانهزام المشركين فى مكة لا لانهم كانوا عديمى البصيرة فى الحياة العملية و لكن لانهم كانوا فاقدى الذكاء النظرى و كانوا لا يستطيعون ادراك المعنى الحقيقى للاحداث و الحقائق —

و هذا يدل على ان القرآن الكريم لم يعلم المسلمين مشاهدة المظاهر الخارجية فحسب و بل طالبهم ان ينزلوا بفكرهم الى الاعماق و ان يفهموا ما تنطوى عليها من معان جليلة و حداهم القرآن نحو الفلسفة التى ليست الا محاولة لفهم حقائق الاشياء و ما تنطوى عليها من معان —